

الفصل السابع والثلاثون

ذكر ينابيع مدينة القاهرة

فى القلعة الداخلية واحد وعشرون ينبوعا يأتيها الماء من النيل المبارك عبر ٣٦٠ قنطرة من خيرات السلطان الغورى، وتصل المياه إلى أسفل القلعة وترفعها السواقي ليل نهار، وثمة خزان عظيم للماء له قباب يمتلئ هذا الخزان بالماء وفى الصباح يأتي سقاؤو القلعة وعددهم ٥٠٠ لحمل المياه فى قريهم، فيسقوا البيوت التى فى القلعة، وتباع أربع قرب بيارة، وأحد هذه الينابيع لها قبة عظيمة أسفل «الضرب خانة» بالقلعة الداخلية، ولها مواسير فى غلظ ذراعين وماؤها يأتي من السواقي المجاورة لقصر الباشا.

وثمة ينبوع آخر بالقرب من الشيخ سارية إلا أن ماءها من بئر يوسف لذلك فهو أميل إلى الملوحة وثمة سواق أخرى لينابيع وأحواض وشادروانات الشيخ سارية وماؤها أميل إلى الملوحة.

وفى شمال قلعة الانكشارية بالقرب من جامع «قان باى سلطان» نبع على صخرة قائمة تأتى مياهها من بئر كأنها حفرت فى جهنم.

وخارج القلعة فى مقر أتباع الباشا ينبوع ذات قبة عظيمة أسفل قاعة ديوان السلطان قلاوون ذات الأربعين عمودا وهى ينبوع لها ماسورتان فى غلظ الذراع وماؤها عذب زلال ويجلب السقاؤن الماء منها لأتباع الباشا، ومياهها كذلك من المياه التى تأتى عبر قناطر الغورى.

وينبوع آخر فى ميدان قصر الباشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة وماسورتان وماؤها صاف، ويأتيها الماء كذلك من قناطر الغورى.

وينبوع آخر بالقرب من مخبز رئيس الخبازين وله ست مواسير تتصل بصنابير يتوضأ منها المصلون وجميع أتباع الباشا يروون ظمأهم منها إنه شراب طهور، وماؤها يأتي كذلك من سواقي الغورى.

وفى مطبخ الباشا ينبوع كذلك ذات ماسورتين وماؤها صاف تشرب منه الجياد وهو منسوب كذلك للغورى.

وتتوسط حجرات العزب ينبوع لها قبة عالية تهب الحياة، ويصعد إلى قبتها بسلم من ست درجات، إنها عين الحياة، ولها ماسورتان متجاورتان في غلظ الذراع، وهي كذلك منسوبة إلى السلطان الغورى .

وفى داخل باب العزب كذلك ينبوع يجرى فى اسطبل طائفة عسكر حجاج المسلمين، وتشرب كل الخيول من هذا الماء العذب وهذا النبع كذلك من خيرات السلطان الغورى . وليس فى القاهرة يبايع سوى هذه وما فى القلعة الداخلية . وإذا ما سئل عما إذا كانت هذه الينابيع تكفى أهل القاهرة وهم بحر من البشر فتذكر ما جاء فى فرمان السلطان مراد الرابع عن الآبار والينابيع والسواقي بيد أن سواقي البساتين والحداثق قليلة وهى خاصة بها وحدها .

بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق

فى عهد السلطان (مراد الرابع) وعندما كان بيرم باشا واليا على مصر- بناء على فرمان السلطانى - أحصى جميع مبرات ودكاكين الأسواق السلطانية، وما تحتويها، وعرض ذلك على السلطان (مراد)، وجاء فى هذا الإحصاء أن فى القاهرة ٢٧٤٠٠٠ بئر ! ذلك لأن ما سلف ذكره من قصور السلف والوزراء والوكلاء والأعيان والأعراف يضم خمسة أو ستة آبار، أو على الأقل بئر واحدة لكل قصر من هذه القصور .

فضلا عن آلاف الجوامع والمساجد والخانات والمبرات والمدارس لكل منها بئر أو أكثر وعلى رأس كل طريق، وداخل بعض العطفات أحواض طويلة تسقى منها دواب المسافرين من خيل، وجمال، وثيران، وحمير . ولكل حوض منها سواق ذات سقف منقوش ذى زخارف، يقوم على أعمدة من حجر، وتستخرج هذه السواقي الماء من الآبار، ويتدفق الماء من ثلاثة مواضع على هيئة رؤوس أسود أو تنانين أو شياطين، فتملأ الأحواض وتشرب منها كل الدواب .

وفى مدينة القاهرة ٩٢٠٠ ساقية ذات حوض، وكل منها من خيرات سلطان، أو وزير، أو عين من الأعيان .

فى القاهرة ٨٩٠٠ طريق من طرق رئيسية ودروب، وأسواق سلطانية، و١٧ حارة منها ليس لها أبواب كالطريق الرئيسى، وفى كل ليلة يعس (الصوباشى) فى ٦٠٠ أو أكثر من رجاله مع (الديودار) للحفاظ على الأمن والحراسة.

وفى الصباح يقوم زبالو الحمامات بكنس الطريق العام، ثم يقوم كل صاحب دار أو دكان برش الماء فى الطريق من الآبار سالفة الذكر، وبذلك تنظف الأسواق السلطانية، وطرق المسلمين، والطرق الرئيسية خاصها وعمامها ويطيب هواؤها، إلى حد لا تبقى فيها ذرة من تراب وبذلك يجد جميع أهل السوق الراحة. هذا هو النظام المرعى فى الكثرة الكاثرة من الطرق الرئيسية العظيمة.

وفى بعض العطفات كذلك، يرش سقاؤو ديارها الماء فى الطرق فيلطف هواؤها.

وفى القاهرة بعد (كسر النيل) يجرى ماء النيل المبارك داخل القاهرة وخارجها من أربعين جهة، ويحمل السقاءون المياه من الخلجان، ويبيع حمل حمل من الماء ب (باره)، وتباع قربة الماء ب (منقرين). ويشرب أهل القاهرة الماء الصافى فترتد إليهم الروح.

ثمة خليج أسفل إحدى سواقي الغورى هو خليج (جسر المنجان)، ويسميه العوام (خليج قطع النيل)، وفى سفح جبل الجوشى بئر تسمى (بئر أفناى)، وأول من حفرها هما (هاروت وماروت) بعد هبوطهما إلى الأرض، وقد عرفنا فيه علم الرصد وكانا يرقبان الكواكب، وعلموا أهل القاهرة علم النجوم والسحرة حتى أصبح كل أهلها من السحرة.

وبئر (أفناى) تلك موجودة إلى الآن إلا أنها خربة لعدم وجود ماء فيها. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر بتطهيرها فأصبحت كما كانت فى عهد هاروت.
